الى رجال التعليم

بقايا التركية

فى لغة مصر الرسمية

للأستاذ أبى خلدون ساطع بك الحصري

مدير دار الآثار العربية بالعراق

لقد لاحظ العلماء الذين توغلوا فى درس الحوادث الاجتماعية اللسانية ، أن الكلمات كثيراً ماتنتقل من لغتها الأصلية إلى اللغات الأخرى حسب العلائق التى تنشأ وتوثق بين الأمم التى تتكلم بها ، وقد تندمج هذه الكلمات فى اللغة التى دخلت عليها ؛ فتنتظم فى سلك كلماتها الأصلية وتتكيف بمقتضيات قواعدها الخاصة ؛ وقد تولد نسلا جديداً فى موطنها اللغوى الجديد ، يختلف عن النسل الذى كان قد تولد منها فى موطنها الأصلى اختلافاً كلياً

أما أنواع الكلمات التى تنتقل بهذه الصورة من لغة إلى لغة ، فتتبع - بطبيعة الحال - أنواع العلائق التى تحدث بين الأمم التى تتكلم بها : فالمعاملات التجارية تؤدى إلى انتقال الأسماء مع الأشياء والأمتعة ، والنفوذ العلمى يسبب انتقال المصطلحات العلمية مع الآراء والمعلومات ، والسيطرة السياسية تؤدى إلى انتشار الكلمات والتعبيرات المستعملة فى الأنظمة الادارية والعسكرية ، والكلمات والمصطلحات التى تدخل على اللغة بسبب هذه العلائق المتنوعة ، تبقى فيها عادة حتى بعد انقطاع تلك العلائق . . ولهذا السبب نجد العلماء الذين يستكشفون الحقائق فى مجاهيل التاريخ يستندون فى بعض الأحوال إلى « مقارنة الألسن » و « تتبع الكلمات » فى استدلالاتهم المتعلقة بالحوادث التاريخية والتطورات الاجتماعية .

* * *

لعل الآثار التى تركتها التركية فى مصر ، ولاسيما فى لغة الدواوين الرسمية ، من أبرز الأمثلة وأقربها إلى ما أسلفنا . إذ أننا إذا استعرضنا عناوين الوظائف الرسمية فى جداول الميزانية ودليل التليفون وتصفحنا بعض النشرات الرسمية ، وتتبعنا بضعة أعداد من الجرائد اليومية ، فسجلنا الكلمات والتعبيرات التركية التى نصادفها خلال هذا البحث السريع . . دهشنا من كثرة الكلمات والتعابير الباقية من عهد الحكم التركى فى مصر

نستطيع أن نقول إن معظم النعوت والألقاب المستعملة فى مصر هى من بقايا ذلك الحكم . ولا سيما الكلمات والتعابير التى تدل على الرتب الملكية والعسكرية ، فكلها ترجع إلى منشأ تركى بدون استثناء فان كلمات « بك ، افندى ، باشا ، هانم » تركية الأصل . مع هذا تستعمل فى مصر كالكلمات العربية ، ويقال لذلك « بكوية وبكوات » و « باشوية وباشوات ، افندية ، وهوانم » ، ومما تجب ملاحظته أن هذه الالقاب ألغيت فى تركية أخيراً واستبدلت بكلمة « باى » للرجال و « بايان » للنساء

فمن يتتبع الجرائد التركية الآن لايجد فيها أثراً للكلمات التى بحثنا عنها ؛ غير أن من يتصفح الجرائد المصرية يصادف فى كل نسخة منها مئات

ومما يستلفت الأنظار أن الألقاب الرسمية التى تستعمل فى مصر عند ذكر أصحاب الرتب أو مخاطبتهم — مثل : صاحب العزة ، صاحب السعادة — أيضاً تمت بقرابة إلى العهد التركى ، بالرغم من مظهرها العربى : فان الأتراك عند ما أرادوا أن يضعوا لقباً خاصاً بأصحاب كل رتبة من الرتب الملكية والعلمية ، اقتبسوا من العربية كلمات كثيرة ، مثل « رفعة ، عزة ، سعادة ، عطوفة ، دولة ، فخامة ، فضيلة سماحة ، سيادة ، عناية ، عصمة . . » وأضافوا إلى آخر كل واحدة منها حرف « لو » الذى يعرف فى قواعد الصرف التركى باسم « أداة المصاحبة » فقالوا « . . . عزتلو ، سعادتلو ، دولتلو ، فخامتلو ، فضيلتلو ، سماحتلو . . . » إن هذه النعوت والألقاب استعملت فى مصر مدة غير قصيرة بصيغتها التركية ، ثم استبدلت فيها « أداة المصاحبة » التركية بتعبير « صاحب ال . . . » العربية ؛ فتحولت بذلك هذه الألقاب إلى « صاحب العزة ، صاحب السعادة ، صاحب الدولة ، صاحب الفضيلة . . . » فنستطيع أن نقول : إن هذه الألقاب تركية بمدلولاتها الحالية ، وإن كانت عربية بألفاظها الأصلية . وإلا فلا يوجد أى سبب معقول لاعتبار « الفضيلة » خاصة برجال الدين ، ولا لاعتبار « السعادة » أكبر من « العزة » ، ولا لاعتبار « الفضيلة أو العزة أو السعادة » من النعم التى يستطيع أن يحصل عليها الانسان عن طريق انعام الملوك والحكومات . .

وأما أسماء الرتب العسكرية المستعملة فى مصر ، فبعضها تركية بحتة مثل شاويش ، باشاويش ، أونباشى ، يوز باشى ، بيك باشى ، . . . فان اللفظة الأولى كلمة مفردة ، والأربع الباقية كلمات مركبة ، تعنى « رئيس الشاويشية ، رئيس العشرة ، رئيس المائة ، رئيس الألف . . » وهنالك أسماء رتب عسكرية مؤلفة من كلمة تركية وكلمة عربية ، حسب

الاستعمال التركي : مثل «بلوكامين» بمعنى أمين الرهط ، و «ميرآلاى» بمعنى آمر الكتيبة . .

وأما كلمة «صاغ» التى تدل على إحدى الرتب العسكرية فى مصر ، فتركية أيضا ؛ غير أنها لا تستعمل فى التركية للدلالة على رتبة من الرتب العسكرية أبداً . لأن معناها اللغوى عبارة عن «أيمن» ؛ فليس من المعقول طبعاً أن يسمى أحد باسم «الأيمن» ، نظراً لرتبته العسكريه . وأما كيف صارت هذه الكلمة لقباً لأحدى الرتب العسكرية فى مصر ، فلا يتضح إلا بمراجعه تاريخ الألقاب العسكرية فى تركية : إذ يوجد فى الجيش التركى رتبة عسكرية تسمى باسم « قول أغاسى » بمعنى « آمر الجناح » . وبما أن القطع العسكرية كانت تقسم إلى جناحين ، كانوا يقسمون هذه الرتبة قبلا إلى درجتين فيسمون الأولى « صاغ قول آغاسى » بمعنى « آمر الجناح الأيمن » ، ويسمون الثانية « صول قول آغاسى» بمعنى « آمر الجناح الأيسر» . غير أنهم وحدوا الدرجتين مؤخراً ، فحذفوا كلمات « صاغ » و « صول » من هذه الألقاب ، واقتصروا على تسمية الرتبة بـ « قول آغاسى » أى « آمر الجناح » . ويظهر أن لفظ « صاغ قول آغاسى » كان يستعمل فى مصر أيضاً ؛ غير أنه اختصر مؤخراً ، بدون ملاحظة معانى الكلمات التى يتألف منها ، فجرى الاختصار عن طريق حذف الكلمتين الأخيرتين ، والاحتفاظ بالكلمة الأولى وحدها . وبما أن الصفة فى اللغة التركية تتقدم على الموصوف ، كما أن المضاف إليه يتقدم على المضاف ، صار هذا الاختصار بمثابة حذف كلمتى « آمر » و « الجناح » والاحتفاظ بكلمة «الأيمن» وحدها ، وبهذه الصورة أصبحت كلمة «صاغ» التركية ، التى تدل على « اليمين » أو « الأيمن » ، اصطلاحا على رتبة من الرتب العسكرية المصرية

غير أن الكلمات التركية المستعملة فى الجيش المصرى لاتنحصر فى أسماء الرتب العسكرية التى أسلفنا ذكرها . بل ان المصطلحات العسكرية التالية أيضاً تمت إلى منشأ تركى صريح ؛ بلوك ، تابور ، آلاى ، أورطة ، قيشلاق ، قره‌قول ، طوبجى ، نوبتجى . .

إن كلمة « أورطة » تستحق النظر والتأمل بوجه خاص : فأن هذه الكلمة من التعبيرات الدارجة فى تشكيلات مصر العسكرية وهى تدخل فى التراكيب مثل الكلمات العربية ، فيقال مثلا « الأورطة الثالثة » و « استعراض الأورطتين » و « أعلام الأورط » كما يقال « أورطته » ، أورطتيه ، أورطتيهما . . . . مع أنها من الكلمات التركية المهجورة فى تركية نفسها . فان استعمالها فى الجيش التركى قد طال منذ عهد بعيد ، يرجع إلى تاريخ إفناء الانكشارية ، وإحداث النظم العسكرية الجديدة ؛ ومن المعلوم أن المدة التى مضت منذ ذلك التاريخ تناهز القرن الكامل

هذا ، ومما يجدر بالانتباه أن قاموس الاصطلاحات العسكرية المصرية يحتوى على بعض الكلمات الفارسية أيضاً ـ مثل ، يادة ، سوارى ، ياور ، سردار . ـ غير أن هذه الكلمات لم تدخل على العربية من الفارسية مباشرة ، بل دخلت عليها بواسطة التركية . ولذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الكلمات أيضاً من بقايا الحكم التركى بالرغم من أصلها الفارسى

كذلك كلمة « حكم دار » أيضاً تشبه الكلمات المذكورة آنفاً ، إذ أنها مركبة من كلمة « حكم » العربية وكلمة « دار » الفارسية ، فمعناها اللغوى عبارة عن « صاحب الحكم » . غير أن معناها الاصطلاحى المعروف فى مصر يختلف عن معناها الدارج فى تركية ، إذ أن تعبير الـ « حكم دار » لايستعمل فى التركية إلا للدلالة على «الملوك»

هذا وإذا استعرضنا عناوين الوظائف والخدمات المختلفة نجد بينها أيضاً عدداً كبيراً من التعبيرات التركية

أولا ، سلسلة كبيرة من التعبيرات التى تحتوى على كلمة « باش » التركية : باش كاتب ، باشمفتش ، باشمهندس . باشمعاون ، باش محضر باش صراف ، باش حكيم ، حكيمباشى ، خاخامباشى ، باش ساعى ، باش فراش ، باش طباخ ، باش جناينى ، باش بستانى ، باش ميكانيكى باش أدلاء ، باش رئيس البحرية . باش رئيس المطافى . فاذا أنعمنا النظر فى هذه التعبيرات نجد أن كلماتها الأساسية عربية ، غير أنها موصولة بكلمة « باش » وفقا لقواعد اللغة التركية ، وإذا بحثنا عن منشأ هذه التراكيب نجد أن نصفها الأول مستعمل فى التركية أيضاً - غير أن نصفها الأخير لم يستعمل فى التركية أبداً . فنستطيع أن نقول إن القسم الأول منها (من باش كاتب إلى خاخام باشى) مقتبسة من التركية . وأما القسم الثانى (من باش ساعى إلى باش رئيس المطافى) فمستحدثة فى مصر نفسها . قياساً على التراكيب المماثلة المستعملة فى التركية

ثانيا ، سلسلة غير قصيرة من التعبيرات التى تحتوى على أداة «جى» التركية : تليفونجى ، تلغرافجى ، بوسطه جى ، توفكجى ، نيشانجى ، تعليمجى ، مخزنجى ، محاسبجى ، قهوجى ، سفرجى ، عطشجى . عربجى قمشجى ، اجزاجى ، تيارجى ، جاشمبجى ، مطبعجى ، استفجى ، جزمجى مكوجى ، أشارجى ، ناضورجى ، مفتاحجى . ومما يجب التنبيه اليه أن التراكيب الأربعة الأخيرة ليست مستعملة فى التركية ، مما يدل على أنها استحدثت فى مصر قياسا على أمثالها . وعلاوة على كل ما تقدم نذكر فيما يلى الكلمات التركية التى صادفناها فى النشرات الرسمية :

فنار ، ليمان ، بوغاز ، أورمان ، كوبرى ، قزان ، طوملبة ، بورى ، باشبورى ، أوضه ، قاووش ، آغا ، ترزى . وهذه الكلمات تدخل فى تراكيب بعض التعبيرات مثل : مصلحة الليمانات والفنارات ، حديقة الأورمان ، أوضة المحامين ، الطلبات الأميرية ، تعمير القزانات ، مصلحة الكبارى . كما نذكر فيما يلى الكلمات الفارسية التى صادفناها فى تلك النشرات ، والتى انتقلت إلى مصر بواسطة التركية أيضاً سراى ، شنكل ، كليم ، نيشان ، أورنيك ، ماهية ، رفت ، خانة . . .

ومما يجدر بالذكر أن الكلمة الأخيرة تدخل فى تراكيب كثيرة مثل : أجزخانة ، كتبخانة ، دفترخانة ، بطركخانة ، سلخانة . جبه‌خانه يمكخانه ، أدبخانه ، عربخانه ، شفخانه ، مهندسخانة .

* * *

بعد أن ألقينا هذه الـ السريعة على اللغة الرسمية فى مصر يجدر بنا أن نقوم بمقارنة عامة بين دواوين مصر وبين دواوين سورية والعراق فى هذا الموضوع

من الغريب أن هذه المقارنة تظهر لنا تباينا عظيما فى الأمر : إذ بينما نجد أن دواوين مصر مضيقة لجميع هذه الكلمات الدخيلة والمصطلحات الأعجمية نجد أن دواوين سورية والعراق ـ بعكس ذلك ـ مجردة منها ومتعصبة عليها . .

هذا . . مع أنه قد مضى على انفصال مصر عن تركية عهد طويل ، فى حين أنه لم يمض على انفصال سورية والعراق عنها إلا زمن قصير ، ومع أنه لا يشاهد فى مصر أثر للقوانين الموضوعة فى العهد التركى ، فى حين أن عدداً غير قليل منها لا تزال نافذة فى سورية والعراق . . . ومع أن أنظمة الحكومة المصرية مختلفة عن الانظمة التركية اختلافاً كليا فى حين أن أنظمة سورية والعراق لم تتباعد عنها إلا تباعداً جزئياً . . . ومع أن الذين يعرفون التركية بين موظفى الحكومة المصرية قليلون جداً ، فى حين أن عددهم كثير فى سورية والعراق . . ومع أن اللغة الفصحى منتشرة فى مصر انتشاراً كبيراً ، ودراسة الآداب العربية متقدمة فيها تقدما عظيما ، فى حين أن كل ذلك لا يزال محدودا فى سورية والعراق

فيجدر بنا أن نتساءل عن أسباب هذه الاحوال والحوادث المتناقضة : كيف أن مصر حافظت ، ولا تزال تحافظ ، فى دواوينها الرسمية على هذه المصطلحات الاعجمية ، بالرغم من قدمها فى الانفصال وتقدمها فى فصاحة القلم واللسان ؟ وكيف أن حكومات سورية والعراق ـ بعكس ذلك ـ تخلصت فى دواوينها من جميع تلك المصطلحات ، بالرغم من قرب عهدها فى الانفصال وحداثة دخولها فى مضمار فصاحة الإنشاء والبيان . ؟

إننا نعتقد بأن أسباب ذلك تعود إلى تباين الظروف التى حدث فيها انفصال هذه الأقطار العربية المختلفة عن الدولة العثمانية : فان انفصال مصر حدث قبل أن يستيقظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قومى واضح ، واللغة العربية استولت على الدواوين المصرية بصورة تدريجية ، دون أن تضطر إلى الاصطدام مع اللغة التركية والقيام عليها بحركة عنيفة . وهذا ما جعل مصر متساهلة مع الكلمات التركية ومضيافة لها ، بل لا نغالى إذا قلنا : غير منتبهة إلى أعجميتها .

وأما انفصال سورية والعراق عن الدولة العثمانية ، فلم يحدث إلا بعد حوادث كثيرة أدت إلى إيقاظ الشعب يقظة مقرونة بشعور قوى واضح واللغة العربية لم تصبح رسمية هناك إلا بعد أن حدثت مشادة بينها وبين التركية وبعد أن مازج هذه المشادة شىء غير قليل من العنف من الطرف الواحد ومن الثورة من الطرف الآخر . فقد قامت فى سورية والعراق ، فى أواخر العهد العثمانى ، جمعيات عديدة تطالب بـ « حق التعلم والتعليم بالعربية » و « حق المرافعة والمراجعة بالعربية » ، تارة بالطرق السياسية ، وطوراً بالطرق الثورية . ولم تنل تلك البلاد هذا « الحق » بصورة فعلية إلا بعد الحرب العالمية ، فعند ما تألفت الحكومة العربية فى سورية أسرعت إلى تحويل لغة الدواوين إلى العربية بحد وحماس ؛ فلا نغالى إذا قلنا إن المصطلحات التركية خرجت من الدواوين هناك مع خروج الموظفين الأتراك منها .

والحكومة العراقية التى تأسست بعد سقوط الحكومة العربية السورية أيضاً حذت حذوها فى هذا الباب ؛ وزيادة على ذلك وجدت أمامها متسعا من الوقت لإتمام عملها فى تكوين مجموعة المصطلحات الادارية والعسكرية من الكلمات العربية التى لا تشوبها شىء من الأعجمية

هذه هى سلسلة الحوادث والأسباب التى وجهت الأمور فى سورية والعراق إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذى سارت عليه فى مصر فى هذا المضمار . . .

مع هذا ، لا بد من الاشارة إلى أن هذه الأسباب تعود إلى النشأة الأولى وظروف الانفصال فأدت إلى إبقاء هذه المصطلحات فى لغة الدواوين المصرية إلى الآن . غير أنه يجدر بنا أن نتساءل : هل هذه الأسباب ستضمن دوام هذه المصطلحات بعد الآن أيضا ؟

إننى لا أتردد فى الاجابة على هذا السؤال بالنفى . فلا أستبعد أن يصبح معظم ما كتبته آنفا « حكاية ماض » ـ فى عهد مصر الحديث ـ بعد مدة وجيزة من الزمن

بغداد أبو خلدون

ساطع الحصرى